محمود درويش

WWW.FALASTIN.NET

شبكة فلسطين نت

مقدمة

سيرة حياة الشاعر

مؤلفاته

مقدمة

محمود درويش الابن الثاني لعائلة تتكون من خمسة ابناء وثلاث بنات ، ولد عام ١٩٤١ في قرية البروة (قرية فلسطينية مدمرة ، يقوم مكانها اليوم قرية احيهود ، تقع ١٢,٥ كم شرق ساحل سهل عكا) ، وفي عام ١٩٤٨ لجأ الى لبنان وهو في السابعة من عمره وبقي هناك عام واحد ، عاد بعدها متسللا الى فلسطين وبقي في قرية دير الاسد (شمال بلدة مجد كروم في الجليل) لفترة قصيرة استقر بعدها في قرية الجديدة (شمال غرب قريته الام -البروة-)

سيرة حيات محمود درويش

مايا جاغي
ترجمة:غازي مسعود

قبل أيام من إطلاق ارئيل شارون عملية إسرائيل"الدرع الواقي" وقيام الجيش الإسرائيلي بشن هجومه على مدينة رام الله في الضفة الغربية في ٢٩/آذار، زار المدينة ثمانية مؤلفين من" برلمان الكتاب الدولي"، وكان من ضمنهم الفائزان بجائزة نوبل للآداب ولي شوينكا وجوزيه ساراماغو، وكل من بريتن بريتنباخ، خوان غويتيسولو، ورسل بانكس، قدموا جميعاً استجابة لنداء من الشاعر محمود درويش ليكونوا شاهدين على الاحتلال العسكري. وذات مساء، أخذهم درويش الذي وجده الروائي الأمريكي بانكس" حزيناً لكن زيارتنا رفعت معنوياته"، إلى تله تطل على القدس عبر مستوطنات يهودية وحواجز للجيش، يقول درويش : "أردت أن أريهم كيف تهشمت جغرافية فلسطين بالمستوطنات، كما لو أنها المركز وكما لو أن المدن الفلسطينية هامشية"، أضاف" لا دعاية، تركناهم يرون الحقيقة".

وبينما استذكر بريتنباخ الابارثايد، أجرى بانكس مقارنه مع المحميات الهندية في القرن التاسع عشر، يقول: "روعت وغضبت لمدى الاحتلال المادي، فالمستوطنات مثل مدن الضواحي والقوات العسكرية جاهزة لحمايتها".

بعد أربعة أيام من قراءة قام بها درويش وضيوفه أمام جمهور بلغ ألف شخص في مسرح القصبة، بدأ الجيش الإسرائيلي عمليته لاقتلاع جذور الانتحاريين، يرى الفلسطينيون الغزو عقوبة جماعية وخطوة لتدمير البنية التحتية لدولتهم الجنينية، ودرويش نفسه الذي كان قد غادر رام الله ليلقي شعره في العاصمة اللبنانية بيروت، لم يستطع العودة، علم أن مركز" السكاكيني الثقافي" حيث يحرر مجلته الأدبية الفصلية " الكرمل" قد نهب وان مسوداته قد وطئت بالأقدام، يقول درويش" أرادوا إبلاغنا رسالة مفادها أن لا أحد محصن – بما في ذلك الحياة الثقافية"، أضاف" اعتبرت الرسالة شخصية، أعرف أنهم أقوياء ويستطيعون الغزو وقتل أي شخص غير انهم لا يستطيعون تحطيم كلماتي أو احتلالها".

يبلغ درويش الآن من العمر ستين عاماً، وعرف لأربعين عاماً تقريباً بأنه شاعر فلسطين القومي، وذاك "عبء" يستمتع به ويثور ضده في الوقت نفسه، انه افضل شعراء العالم العربي مبيعاً، وجذبت قراءته لشعره مؤخراً في إستاد بيروت ٢٥٠٠٠ شخص، أصبحت فلسطين في عمله مجازاً عاماً لفقد عدن، للولادة والعبث، لكرب الانخلاع والمنفى، وهو عند الأستاذ إدوارد سعيد، من جامعة كولومبيا في نيويورك، أروع شاعر عربي، له حضور طاغي في فلسطين وإسرائيل – البلد الذي نشأ فيه لكنه غادر المنفى سنة ١٩٧٠، وعند سعيد أيضا، فأن شعر درويش" جهد ملحمي لتحويل قصائد الفقدان الغنائية إلى دراما العودة المؤجلة إلى اجل غير محدود"، وتراه الكاتبة أهداف سويف أحد أقوى أصوات المأساة الفلسطينية.

ورغم انه يكتب بالعربية، يقرأ درويش الإنجليزية والفرنسية والعبرية، ومن بين الذين تأثر بهم رامبو وغنتزبرغ، ترجمت أعماله إلى كثر من عشرين لغة، وهو افضل من يباع من الشعراء في فرنسا، ورغم ذلك، فأن مختارات قليلة من دواوينه الشعرية العشرين مترجمة إلى الإنجليزية، أحدها Sand (١٩٨٦) الذي ترجمته زوجته الأولى، الكاتبة رنا قباني، وتراه الشاعرة الأمريكية ادرين رتش شاعرا بقامة عالمية ل "مجازفاته الفنية"، وسوف تنشر له دار نشر جامعة كاليفورنيا في الخريف القادم مختارات جديدة من قصائده بعنوان : Unfortunately, It Was Paradise.

ويكشف صوت درويش الجهوري وأداؤه الغنائي موسيقية شعره، ومؤخراً، في فيلادلفيا التي كان فيها ليستلم ٣٦٠٠٠٠ دولاراً، جائزة الحرية الثقافية التي تمنحها" مؤسسة لانان"، اعترف درويش ببالغ حزنه وغضبه" للصراع بين السيف والروح" في فلسطين، وقد كتب أخر قصائده" حالة حصار" – التي قرأها في الاحتفال- أثناء الغارات الإسرائيلية في شهر كانون الثاني الماضي. يقول: " رأيت الدبابات تحت نافذتي، أنا كسول عادة، اكتب في الصباح على طاولة نفسها، لي طقوسي الخاصة، غير إنني خالفتها أثناء الطوارئ، حررت نفسي بالكتابة، توقفت عن رؤية الدبابات – سواء كان ذاك وهما أو قوة الكلمات".

في القصيدة، يقول" شهيد":

" احب الحياة، على الأرض، بين الصنوبر والتين لكنني ما استطعت إليها سبيلا، ففتشت عنها بأخر ما املك"، ودرويش الذي كتب في صحيفة فلسطينية بعد ١١ أيلول" لا شيء يبرر الإرهاب" عارض بوضوح الهجمات على المدنيين وظل صوتا مثابرا يدعوا للتعايش الفلسطيني – الإسرائيلي، وهو يصور على أن العمليات الانتحارية لا تعكس ثقافة موت بل تعكس إحباطا من الاحتلال، يقول:

ولد درويش سنة ١٩٤٢ لعائلة مسلمة سنية تملك ارض في قرية الجليل تدعى البروة، أيام الانتداب البريطاني على فلسطين، حين كان في السادسة من عمره، احتل الجيش الإسرائيلي البروة والتحقت عائلة درويش بخروج اللاجئين الفلسطينيين الذين تقدر الأمم المتحدة عددهم ما بين ٧٢٦٠٠ –٩٠٠٠٠٠، قضت العائلة عاما في لبنان تعيش على عطايا الأمم المتحدة، بعد خلق إسرائيل والحرب الإسرائيلية العربية لسنة ١٩٤٧، عادت العائلة" بشكل غير شرعي" سنة ١٩٤٩، لكنها وجدت البروة، مثلها مثل ٤٠٠ قرية فلسطينية أخرى في الأقل، قد دمرت أفرغت من سكانها العرب، بنيت مستوطنات إسرائيلية على أنقاضها، يقول درويش" عشنا مرة أخرى كلاجئين، وهذه المرة في بلدنا، كانت تلك خبرة جماعية، ولن أنسى أبدا هذا الجرح".

يقول درويش، ثاني اكبر أربعة اخوة وثلاث أخوات،فقدت العائلة كل شيء، قلص والده سليم إلى مجرد عامل زراعي: " اختار جدي العيش فوق تله تطل على أرضه، والى أن توفي، ظل يراقب المهاجرين (اليهود) من اليمين يعيشون في أرضه التي لم يكن قادراً على زيارتها".

ولأنهم كانوا غائبين أثناء أول إحصاء إسرائيلي للعرب، و لأنهم اعتبروا " متسللين" غير شرعيين و" غرباء غائبين – حاضرين"، منعت على أفراد العائلة الجنسية الإسرائيلية، تقدموا بطلبات لبطاقات هوية ولكن جواز السفر حجب عن محمود، " كنت مقيماً وليس مواطناً، ارتحلت ببطاقة سفر"، في مطار باريس سنه ١٩٦٨، يقول :

" لم يفهموا، أنا عربي، جنسيتي غير محددة، احمل وثيقة سفر إسرائيلية، ولذا رجعت".

كانت أمه، حورية لا تحسن القراءة والكتابة، غير أن جده علمه القراءة، " حلمت أن أكون شاعراً"،

حين بلغ السابعة من عمره، كان درويش يكتب الشعر، عمل في حيفا صحفياً.

وفي سنة ١٩٦١ التحق بالحزب الشيوعي الإسرائيلي،" راكاح"، حيث اختلط العرب واليهود، وعمل فيه محرراً لصحيفته، خضع الفلسطينيون في إسرائيل لقانون الطوارئ العسكري إلى سنة ١٩٦٦، واحتاجوا تصاريح للسفر داخل البلد، بين سنة ١٩٦١ وسنة ١٩٦٩، سجن لعدة مرات، بتهمة مغادرته حيفا دون تصريح.

حقق له ديواناه" أوراق الزيتون" (١٩٦٤) و" عاشق من فلسطين" (١٩٦٦) شهرته شاعر مقاومة، عندما كان في الثانية والعشرين من العمر، أصبحت قصيدة" بطاقة هوية" التي يخاطب فيها شرطياً إسرائيليا" سجل، أنا عربي، ورقم بطاقتي خمسون ألف". صرخة تحد جماعية، أردت إلي اعتقاله في مكان إقامته سنة ١٩٦٧ عندما أصبحت أغنية احتجاج، وقصيدة" أمي" التي تتحدث عن حنين ابن سجين إلى خبز أمه وقهوة أمه،

" كانت اعترافا بسيطا لشاعر يكتب عن حبه لامه، لكنها أصبحت أغنية جماعية، عملي كله شبيه بهذا، أنا لا اقرر تمثيل أي شيء إلا ذاتي، غير أن تلك الذات مليئة بالذاكرة الجماعية".

وحسب سعيد، عرفت قصائد درويش الكفاحية المبكرة الوجود الفلسطيني، معيدة التأكيد على الهوية بعد شتات ١٩٤٨، كان

لا يوجد فلسطينيون" وتزامن ظهور شعر درويش الغنائي مع ولادة الحركة الفلسطينية بعد الهزيمة العربية في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧، ورغم ذلك، نفر دائما أن يمدح من منطلق التضامن، يستذكر زكريا محمد الذي كان طالبا في الضفة الغربية في نهاية الستينات من القرن الماضي،" كتب مقالة يقول فيها : نريد منكم الحكم علينا كشعراء، وليس كشعراء مقاومة".

وصف درويش الصراع بأنه: "صراع بين ذاكرتين" وتتحدى قصائده المعتقد الصهيوني المجسد في شعر حاييم بيالك" ارض بلا شعب لشعب بلا ارض" وبينما يعجب بالشاعر العبري يهودا عامخاي، يقول" طرح شعره تحدياً لي، لأننا نكتب عن المكان نفسه، يريد استثمار المشهد والتاريخ لصالحة، ويقيمه على هويتي المدمرة، لذا نتنافس :

من مالك لغة هذه الأرض ؟

من يحبها اكثر ؟

من يكتبها افضل ؟"

ويضيف :" يصنع الشعر والجمال السلام دائماً، وحين تقرأ شيئا جميلا تجد تعايشا، انه يحطم الجدران.. أنا أنسن الساخر دائما، وحتى أنسن الجندي الإسرائيلي"، الأمر الذي فعله في قصائد من مثل" جندي يحلم بزنابق بيضاء" التي كتبت بعد حرب ١٩٦٧ فوراً، ينتقد عديد العرب القصيدة، غير انه يقول :" سأواصل انسنة حتى العدو.. كان الأستاذ الأول الذي علمني العبرية يهودياً، كان الحب الأول في حياتي مع فتاة يهودية، كان القاضي الأول الذي زج بي في السجن امرأة يهودية، ولذا فأنني منذ البداية، لم أرد اليهود أما شياطين أو ملائكة بل كائنات إنسانية"، وعديد قصائده موجه إلى عشاق يهود، يقول : هذه القصائد تقف إلى جانب الحب وليس الحرب".

منعت عليه الدراسة العليا في إسرائيل، ولذا درس الاقتصاد السياسي في موسكو ستة ١٩٧٠، لكنه، متحررا من الوهم، غادرها بعد عام، يقول :

" بالنسبة لشيوعي شاب، موسكو هي الفاتيكان، لكنني اكتشفت إنها ليست جنة"، وفي سنة ١٩٧١ التحق بصحيفة" الأهرام" اليومية في القاهرة، وقرر أن لا يعود إلى حيفا، وختم بالشمع على هذا القرار ستة ١٩٧٣، عندما التحق بمنظمة التحرير الفلسطينية ومنع من العودة إلى إسرائيل منعا استمر لستة وعشرين عاما.

هذا وقد أدان عديد الفلسطينيين وزملاء من الحزب الشيوعي درويش على هجرة إسرائيل،" كان ذاك القرار اصعب قرار اتخذته في حياتي، لعشرة أعوام لم يسمح لي بمغادرة حيف، وبعد سنة ١٩٦٧ بقيت قيد الإقامة الجبرية"، ورغم ذلك لا يزال يشعر بالذنب لأنه ترك.

" كنت صغيرا جدا لأرى التوازن بين وقوفي ضد هذه الظروف أو العثور على سماء مفتوحة لجناحي الصغيرين شاعرا، أغوتني المغامرة، غير أن الحكم النهائي لا بد أن يأتي مما فعلته في المنفي"، هل أعطيت اكثر للثقافة الفلسطينية ؟ يقول جميع النقاد أنني لم أضع وقتي".

كان منير عكش، محرر القصائد المختارة بالإنجليزية المعنونة : The Adam Of Two Edens(٢٠٠١)، واحدا من بين عدة نقاد حازمين انتقدوا نجاح درويش" المبستر" في حيفا، يقول عكش" كانت شهرته متقدمة على شعره ولكنني اكتشفت في ذلك الحين تململه الفني الرائع، فمع كل ديوان، يفتح مناطق جديدة".

ويقول درويش" في الخمسينات (من القرن العشرين) آمنا نحن العرب بإمكانية أن يكون الشعر سلاحاً، وان على القصيدة أن تكون واضحة مباشرة، على الشعر الاهتمام بالاجتماعي، ولكن علية الاعتناء بنفسه أيضا، بالجماليات.. آمنت أن افضل شيء في الحياة أن أكون شاعراً، ألان اعرف عذابه، في كل مرة انهي فيها ديوانا، اشعر انه الأول والأخير".

في الفترة الممتدة من سنة ١٩٧٣ إلى سنة ١٩٨٢ عاش في بيروت، رئيس تحرير لمجلة" شؤون فلسطينية"، واصبح مديراً لمركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية قبل أن يؤسس مجلة" الكرمل" سنة ١٩٨١، بحلول سنة ١٩٧٧ بيع من دواوينه العربية اكثر من مليون نسخة لكن الحرب الأهلية اللبنانية كانت مندلعة بين سنة ١٩٧٥ وسنة ١٩٩١ ترك بيروت سنة ١٩٨٢ بعد أن غزا الجيش الإسرائيلي بقيادة ارئيل شارون لبنان وحاصر العاصمة بيروت لشهرين وطرد منظمة التحرير الفلسطينية منها ذبح الكتائبيون، حلفاء إسرائيل، اللاجئين الفلسطينيين في مخيمي صبرا وشتيلا، اصبح درويش" منفيا تائها"، منتقلا من سوريا وقبرص والقاهرة وتونس إلى باريس، ساخرا بمرارة من قارة عربية تنام بسرعة في ظل أنظمة قمعية"، قال :

حلت كرة القدم محل فلسطين في حب العرب.

يقول" حررت نفسي من الأوهام كلها، أصبحت ساخراً، أسأل أسئلة عن الحياة مطلقة، لا مجال فيها للأيديولوجية القومية"، وخلال ٩٠ يوما في باريس سنة ١٩٨٥، كتب رائعته النثرية" ذاكرة للنسيان" (١٩٨٦)، وهي أوديسا سيرة ذاتية على شكل يوميات بيروتية تجري خلال يوم واحد من القصف الإسرائيلي الثقيل في السادس من آب ١٩٨٢ – يوم هيروشيما.

يبدو درويش غامضاً بشأن "حادثة" الزواج: " يقال لي كنت متزوجاً، لكنني لا أتذكر التجربة". قابل رنا قباني (ابنة أخ الشاعر السوري نزار قباني) في واشنطن سنة ١٩٧٧ فتزوجا " لثلاثة أعوام أو أربعة"، غير إنها تركت لتحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كيمبردج" وكان مستحيلاً الاستمرار". وتزوج لنحو عام في منتصف ثمانينيات القرن العشرين مترجمة مصرية، حياة ألهيني، يقول: " لم نصب بأية جراح انفصلنا بسلام، لم أتزوج مرة ثالثة، ولن أتزوج، إنني مدمن على الوحدة.. لم أشأ أبدا أن يكون لي أولاد، وقد أكون خائفاً من المسؤولية، ما احتاجه استقرار اكثر، أغير رأيي، أمكنتي، أساليب كتابتي، الشعر محور حياتي، ما يساعد شعري افعله، وما يضره أتجنبه".

ويعترف بفشله في الحب كثيراً، "احب أن أقع في الحب، السمكة علامة برجي (الحوت)، عواطفي متقلبة، حين ينتهي الحب، أدرك انه لم يكن حباً، الحب لا بد أن يعاش، لا أن يُتذكر".
منفياً في باريس بين سنة ١٩٨٥ وسنة ١٩٩٥ راجع درويش أو رفض العديد من قصائده السياسية المباشرة التي كتبها في مرحلة بيروت والتي كان نموذجها بابلو نيرودا التشيلي ولوي اراجون، أحد شعراء المقاومة الفرنسية.
وكتب أيضا بعض روائعه : " أحد عشر كوكباً" سنة ١٩٩٢ متوالية "ملحمية غنائية" عن سنة ١٤٩٢، تاريخ رحلة كولومبوس التي دمرت عالم الأمريكيين الأصليين، وعن طرد العرب من الأندلس، اللتان تماثلان كلاهما النكبة الفلسطينية، كما يصف الفلسطينيون خلق إسرائيل سنة ١٩٤٨ و"لماذا تركت الحصان وحيداً" سنة ١٩٩٥ "سيرته الذاتية شعرياً".
وما أن اصبح شعره الناضج غير مباشر اكثر، ملمحاً لأساطير متنوعة، شعر درويش بتوتر علاقته مع جمهور متلقيه، يقول عكش، " بدأ الجمهور يشعر انه أصبح غير مخلص قليلاً لقضيته، غير انه ناضل ليحملهم معه"، وعند درويش" اكبر إنجاز في حياتي كسب ثقة المتلقين، تشاجرنا من قبل: كلمات غيرت أسلوبي، صدموا أرادوا سماع القصائد القديمة، الآن يتوقعون مني التغيير، يطلبون أن لا أعطي أجوبة بل أن اطرح مزيداً من الأسئلة".
انتخب للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٨٧، لكنه رأى دوره رمزياً (" لم اكن أبداً رجل سياسة") وحسب وزير الثقافة الفلسطيني في رام الله، ياسر عبد ربه،" انه ليس فناناً منعزلاً"، يتابع الحياة السياسية، ويحاجج ضد المواقف المتطرفة". هذا وقد كتب درويش إعلان الجزائر،" إعلان الدولة الفلسطينية"، سنة ١٩٨٨، عندما قبلت منظمة التحرير الفلسطينية التعايش مع إسرائيل في حل يقضي بدولتين. صادق رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ياسر عرفات، في القاهرة سنة ١٩٧١، و قال عرفات : أستطيع شم عبير الوطن فيك، لكنه رفض عرضه بتنصيبه وزيراً للثقافة.

استقال درويش من اللجنة التنفيذية في اليوم التالي لتوقيع اتفاقية أوسلو سنة ١٩٩٣ – المرحلة الأولى من إقامة سلطة فلسطينية حاكمة – قائلاً " استيقظ الفلسطينيون ليجدوا أنفسهم بلا ماض"، رأى صدوعاً في الاتفاقيات وقال إنها لن تنجح، والأرجح أن تصعد الصراع بدلاً من إنتاج دولة فلسطينية قابله للحياة أو سلام دائم، ويقول عبد ربه :" كان متشككا بأوسلو، ويؤسفني القول أن حكمه ثبتت صحته".

سمحت اتفاقيات أوسلو لدرويش الانتقال إلى سلطة" الحكم الذاتي" الفلسطينية الجديدة،" صدمتني غزة – لم يكن فيها أي شيء حتى ولا طرق معبدة"، لديه منزل في العصمة الأردنية عمان – بوابة إلى العالم الخارجي – لكنه استقر في رام الله سنة ١٩٩٦، ورغم ذلك يقول انه لا يزال في المنفى،" المنفى ليس حالا جغرافية، احمله معي أينما كنت، كما احمل وطني"، اصبح وطنه لغة،" بلدا من الكلمات".

قابل رجا شحاده، وهو محامي فلسطيني يسكن جوار رام الله، درويش في باريس.

يقول :" بدا مغرماً بالأشياء الناعمة – بالمعيشة الراقية والطعام الجيد ومما يحسب لصالحه انه جاء إلى هنا"، ويقول درويش الذي يعيش من الصحافة والتحرير وبالمثل من بيعات شعره : سأبقى إلى أن تتحرر فلسطين في اليوم اللاحق لحصول الفلسطينيين على دولة مستقلة، لدى الحق بالمغادرة، لكن ليس قبل ذلك".

ولقي درويش الذي دافع دوماً عن الحوار مع الإسرائيليين تعاطفاً مع إسرائيل أحيانا باعتباره معتدلاً، ولكن حتى أصدقاءه اليساريين هناك أحرجوا لقصيدة أضرت بسمعته.

عابرون في كلام عابر" التي كتبها في بداية الانتفاضة الأولى ضد الاحتلال العسكري التي استمرت من ١٩٨٧ – ١٩٩٣ كتب يقول : آن أن تنصرفوا وتموتوا أينما شئتم / ولكن لا تقيموا بيننا / آن أن تنصرفوا وتموتوا أينما شئتم / ولكن لا تموتوا بيننا".

اقتطف رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، اسحق شامير، القصيدة غاضباً في الكنيست، برلمان إسرائيل : لا يؤثر درويش القصيدة فهي "غاضبة جداً ومباشرة" ولكنه قال إنها موجهه إلى الجنود الإسرائيليين:"ما زلت أقول أن على إسرائيل الخروج من الأراضي المحتلة، ولكنهم اعتبروها دليلاً على أن الفلسطينيين يريدون إلقاء اليهود في البحر، إذا اعتبروا وجودهم مشروطاً بالاحتلال فانهم يتهمون أنفسهم".

هذا وقد خفف الحظر المفروض على زيارة درويش إسرائيل في شهر كانون الثاني ١٩٩٩ وسمح له بزيارة أمه وأقاربه الذين لا يزالون يعيشون في قرى قرب حيفا، غير أن دخوله منع منذ انطلاقة انتفاضة الأقصى، أو الانتفاضة التي انفجرت في شهر أيلول سنة ٢٠٠٠ عندما دخلت أمه المستشفى لسرطان في معدتها، حاول زيارتها " لكنهم اتصلوا بالمستشفى وتحققوا إنها لن تموت، ولذا رفضوا إعطائي إذنا." تعافت لكنه لم يرها لعامين.

أصيب درويش بنوبة قلبية وأجريت له عملية لإنقاذ حياته سنة ١٩٨٤، وعملية جراحية قلبية أخرى سنة ١٩٩٨. أثناء عمليته الجراحية الأولى يقول:" توقف قلبي لدقيقتين، أعطوني صدمة كهربائية، ولكنني قبل ذلك رأيت نفسي اسبح فوق غيوم بيضاء، تذكرت طفولتي كلها، استسلمت للموت وشعرت بالألم فقط عندما عدت إلى الحياة".

ولكن في المرة الثانية، كان قتالا، " رأيت نفسي في سجن، وكان الأطباء رجال شرطة يعذبونني، أنا لا أخشى الموت ألان، اكتشفت أمرا أصعب من الموت: فكرة الخلود، أن تكون خالدا هو العذاب الحقيقي، ليست لدي مطالب شخصية من الحياة لأنني أعيش على زمان مستعار، ليست لدي أحلام كبيرة. إنني مكرس لكتابة ما علي كتابته قبل أن اذهب إلى نهايتي".

وجب عليه التوقف عن التدخين وان يشرب اقل من القهوة التي يحبها، ويسافر اقل. يقول: " شهوتي للحياة اقل، أحاول التمتع بكل دقيقة، ولكن بطرق بسيطة جداً، شرب كأس من النبيذ الجيد مع الأصدقاء، التمتع بالطبيعة، مراقبة قطط الحارة، استمتع بشكل افضل، كنت أتحدث، غير أنني أصبحت حكيماً".

في "جدارية ٢٠٠٠" يمعن رجل مريض جداً التفكير بالموت وبفناء الحضارات في عز انتفاضة الأقصى، وفي هذه الجدارية يظهر محمد الدرة، الطفل الذي يبلغ من العمر ١٢ عاماً ومن إطلق الجنود الإسرائيليون النار عليه ومات بين ذراعي والده كمسيح صغير، ويؤكد درويش الذي يتضمن شعره رمزية توراتية مسيحية ويهودية على موروث له مزدوج " ليست لدي هوية ثقافية عربية خالصة، أنا نتيجة مزيج حضارات ماضي فلسطين، لا احتكر التاريخ والذاكرة والرب، كما يريد الإسرائيليون أن يفعلوا، انهم يضعون الماضي في ساحة المعركة." أما وقد غدا " أكثر حكمة واكبر" مما كان عليه حين نهض لأول مرة لمواجهة التحدي، يقول :" لا احب أن نتقاتل على الماضي، ولندع كل واحد يروي سرده كما يشاء، ولندع السردين يجريان حواراً، وسوف يبتسم التاريخ".

وحسب رأي الشاعر زكريا محمد، تسعى قصائد درويش المتأخرة إلى بناء سفر تكوين للفلسطينيين : " كلها تبدأ : كان شعب وكان ارض..." ومجمل شعره حوار بينه وبين الإسرائيليين للعثورعلى نقطة يستطيعون التصالح عندها."

في شهر آذار سنة ٢٠٠٠ تورط درويش في" حروب إسرائيل الثقافية" عندما أعلن وزير التربية يوسي ساريد أن خمساً من قصائده ستكون جزءا من مناهج مدرسي متعدد الثقافة – في بلد ١٩ بالمائة من سكانه الإسرائيليين فلسطينيون وترعرع عديد يهوده أو والديهم في العالم العربي، ثار صخب، قال عضو الكنيست اليميني المتطرف بني آلون " فقط مجتمع يريد الانتحار يضع" شعر درويش" في منهاجه الدراسي".

وقد نجا رئيس وزراء إسرائيل آنذاك، أيهود باراك، من تصويت لطرح الثقة قائلاً:" أن إسرائيل غير مهيأة لهذا الشعر" ويقول درويش،" يدرسون الطلاب أن البلاد كانت فارغة. وإذا درسوا الشعراء الفلسطينيين، فسوف تتحطم هذه المعرفة." معظم شعري عن حبي لبلدي، مؤخراً ترجمت عدة دواوين من شعره إلى العبرية، ورغم ذلك، يظل وضعه في إسرائيل أسيرا للمناخ السياسي. طالبت الصفحات الأدبية في الصحف باستمرار بترجمة قصائده،" إلا أن كل شيء توقف مع انتفاضة الأقصى" كما يقول تساسون سوميخ.

يقول درويش، " لدى إسرائيل فرصة جيدة لتعيش بسلام. رغم الظلمة، أري بعض الضوء" ولكن شارون، كما يعتقد يريد جر الصراع " إلى المربع الأول، وكأنما لم توجد عملية سلام. إنها حرب لأجل الحرب، وليس الصراع صراعاً بين وجودين، كما تحب الحكومة الإسرائيلية تصوير الأمر".

وكان ديوان " سرير الغريبة" ١٩٩٨، كما يقول، أول كتاب له مكرس للحب كلياً، ورغم ذلك، حتى القدرة على الحب " شكل من أشكال المقاومة: يفترض أن نكون نحن الفلسطينيين مكرسين لموضوع واحد – تحرير فلسطين، هذا سجن، نحن بشر، نحب، نخاف الموت، نتمتع بأول زهور الربيع، لذا فالتعبير عن هذا مقاومة لان يكون موضوعنا مملا علينا، إذا كتبت قصائد حب فأنني أقاوم الظروف التي لا تسمح لي بكتابة قصائد الحب."

وقد صدم قراؤه لما رآه البعض تخليا عن القضية، أحد الأصدقاء الإسرائيليين الفلسطينيين، المؤلف انطون شماس، رأى في الديوان" رسالة تحد كئيبة : إلى الجحيم بفلسطين، وأنا الآن على عاتقي." ورغم ذلك يروي شعر درويش وحضوره في رام الله المحاصرة قصة مختلفة يقول: " أنتظر اللحظة التي أستطيع فيها القول: إلى الجحيم بفلسطين. ولكن ذاك لن يحصل قبل أن تصبح فلسطين حرة، لا أستطيع تحقيق حريتي الشخصية قبل حرية بلدي. عندما تكون حرة، أستطيع لعنها".

المصدر : الغارديان البريطانية ٨ حزيران ٢٠٠٢
الدستور الأردنية، ٢٨ حزيران ٢٠٠٢

مؤلفات محمود درويش

- حالة حصار
- جدارية
- لماذا تركت الحصان وحيدا
- أحبك أو لا أحبك
- ذاكرة للنسيان
- الكتابة على ضوء البندقية
- العصافير تموت في الجليل
- أوراق الزيتون
- شيء عن الوطن
- عصافير بلا أجنحة
- جندي يحلم بالزنابق البيضاء
- يوميات جرح فلسطيني
- آخر الليل نهار

- عاشق من فلسطين، (١٩٦٦)
- آخر الليل، (١٩٦٧)
- حبيبتي تنهض من نومها، (١٩٧٠)
- محاولة رقم ٧، (١٩٧٣)
- تلك صورتها وهذا انتحار العاشق، (١٩٧٥)
- أعراس، (١٩٧٧)
- مديح الظل العالي، (١٩٨٣)
- حصار لمدائح البحر، (١٩٨٤)
- هي أغنية، هي أغنية، (١٩٨٦)
- ورد أقل، (١٩٨٦)
- أرى ما أريد، (١٩٩٠)
- أحد عشر كوكباً، (١٩٩٢)
- سرير الغريبة، (١٩٩٩)
- يوميات الحزن العادي، (١٩٧٣)
- وداعاً أيتها الحرب، وداعاً أيها السلام، (١٩٧٤)
- في وصف حالتنا، (١٩٨٧)
- عابرون في كلام عابر، (١٩٩١)

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]